شيلوح وهزار وضعَته يجب ان تدفن في سجل المستقبل. والغريب أنه لا يتخذ من التوراة الّا نموذجاً واحداً هو المكابيون الذين قضوا في انتحار جماعي، أظنه كان الاول في التاريخ المعروف لدينا.

هذه الفكرة تلاحقه في كل صفحات الرواية، كأنه يتنبأ بموت جماعي يهودي جديد. والموت يراود كل شخوص الروايـة. وهي تبـدأ بأن يقـول جوزيف (البطل الرئيس): «اذا وجب ان اقتل اليوم، فلن يكون بالسقوط من الشاحنة... قالها وقد تمدّد على ظهر الشاحنة التي تنقله الى برج عذرا كمصلوب. كأنه يريد ان يقول ان الذاهبين الى بناء مستعمرة، يذهبون وقد وطّدوا أنفسهم على ان يصلبوا... على الموت بطريقة يختارونها هم وليس الصدفة».

ثم يأتي على وصف أبطال الرواية، فرداً فرداً، وينتقي اكثرهم من نزلاء السجون النازية، ان لم نقل كلهم. وهنا يقع الكاتب في اخطاء عديدة، عبر الكتاب، لكنها، برأينا، متعمدة؛ منها ان عدد القتلى اليهود في اوروبا بلغوا خمسة ملايين. وهذا خطأ شائع يذكره الناس في اوروبا دون التحقق من صحته، مع ان عدد جميع اليهود فيها ـ ما عدا الاتحاد السوفياتي ـ كان أقل من مليونين ونصف المليون. وقد سمعت بكتاب ـ لم استطع الحصول عليه ـ هو اطروحة دكتوراه قدمت الى جامعة تولوز، ينفي صاحبها كل الاسطورة التعذيبية التي يتوجع بها اليهود، جملة وتفصيلًا. لا يخفى، طبعاً، ان اناساً منهم ـ وعددهم كبير ـ قد وضعوا في السجون، لكن سلخ الجلود وحرق الاحياء ليس سوى تدجيل دعائي.

أما الكتاب الذي أشرنا اليه، فقد اختفى من السوق بعد نشره، ولم يطبع ثانية، كما هو مصير أي كتاب ينشر في اوروبا واميركا ضد الدعوة الصهيونية.

يلحّ كوستلر على ان هؤلاء القادمين هم ورثة اسرى بابل وهم ابناء عذاب استمر ألفي عام؛ عائلة روتشيلد نفسها منهم، ذاقت ـ في رأي كوستلر ـ العذاب ذاته؛ أما ثروتها، فقد جاءت عفو خاطر ما جرى لها من احداث.

يصرّ في الروايـة، على ضخـامة ما يشتريه الصندوق الصهيوني من أراض عربية وغلاء الاسعار التي يدفعون؛ لكنه نسي ان كل ما اشتروه حتى سنة ١٩٤٧ لا يتجاوز اثنين بالمئة من مجموع الارض الزراعية في فلسطين، وأن جل هذه النسبة باعهم اياها اناس غير فلسطينيين. وهذا الاحصاء مأخوذ عن دائرة المساحة البريطانية أيام الانتداب؛ أما بعد العام ١٩٤٨، فقد تبدلت النسبة، تبدلاً فظيعاً، لأن شريعة أخرى غير شريعة القوانين المرعية في دول العالم سنّت وطبقت.

ولقد اتبع خطة في روايته تقضي بأن يتحدث عن نماذج معينة يقابل فيها عربياً بيهودي، وملأ الصفحات بالتغني بالنماذج اليهود، فيما جعل من العرب شعباً لا يستحق الحياة.

دينا فتاة حييّة غريبة الاطوار تعشق وترفض الحب، لأنها تعقدت من المعتقل؛ يقابلها مختار قرية الطابغة السمين، الضخم، الذي يتميز عن الوسط الذي يعيش فيه بأنه يعيش في بيت قذر، ولكنه مبني بناء متيناً، ولو انه غير جميل؛ يسمو كثيراً على بيوت اللبن المهترىء في القرية، ممّا يجعل من المختار أعلى مستوى.

كان ضابطاً في الجيش العثماني. قاتل ضد الجنرال اللنبي. وما زال يحتفظ من حياته العسكرية بمنظار استخدمه كيما يرى ما يفعل المعمّرون الذين نزلوا، فجأة، في «هضبة الكلاب».

أول صورة عن المختار، عندما نظر فرأى المعمّرين يعملون، انه ارتجف واصفرّ ولاحت عليه علائم الغضب على ابنه عيسى الذي اختفى من البيت. غير ان الجد أتى يتوكأ على عصا وسأل ابنه عمّا يجرى وكيف بيعت الارض.

لم يكن المختار طيّعاً مهذباً مع ابيه عن قناعة، وانما تمشّياً مع التقاليد، وخوفاً من مجتمع متخلف. يقول له: «تلك ليست غلطتي. كل القرية كانت تريد البيع. وكان هؤلاء الكلاب سيبيعون ضد ارادتي. وما كنّا نلنا شيئاً».